الفصل الخامس

التأصيل التربوي وصناعة الذات الكونية

في رواية أولاد حارتنا

مقدمة :

يظل الإبداع الأدبي مشكلا لضمير و رؤى الإنسان المعاصر ومربيا له بما يقدمه من فعل حقيقي تأثيراً في الحياة و الإنسان ، ناشداً حياة أفضل لإنسان هذا العصر الذي يوزعه القلق بين دروب شتى في ظل عصر يموج بالمتغيرات المتلاحقة ، و التي لا تسمح للإنسان بالتوقف أو التقاط أنفاسه.

والأدب يحاول إخراج الإنسان من ذاتيته ليكون فاعلاً في مجتمعه متمثلاً سلوكه القويم ، وفي كل مرحلة من مراحل حياة الإنسان على الأرض ، يقدم له الأدب فيها صيغة جديدة تفترض دائماً استيعاب الشروط التي نحياها ، مستفيدة من الممكنات الجديدة التي يطرحها الواقع في ظل شروطه التي تتغير بالسلب أو بالإيجاب .

فخطاب الإبداع الأدبي فلسفة للحياة اليومية ، و محاولة لقراءة و تعديل نص الإنسان تجاه حياته بلغات شتى من خلال غرس القيم النبيلة التي تدفع بالإنسان إلى أن يحيا حياة حرة كريمة يؤدي فيها واجبه ويحصل على حقوقه بمشاركته الفاعلة في مجتمعه .

و الإبداع الأدبي ينقل الإنسان من التردد إلى التأصيل النقدي ، و نقد التجارب السابقة ، بهدف بيان ما يمكن أن يصلح لقراءة العالم ، و استحداث أدوات جديدة في قراءة التجربة و العالم من حولنا ، فنص الحياة خبرة معاشة ،

تحتاج إلى إنسان قويم النفس و السلوك ليمارس تأثيره في الحياة من خلال شخصية سوية لها القدرة على مواجهة الحياة بكل أثقالها عندئذ تسود اللحظة الحقيقية في حياة الإنسان ليكون أقرب إلى الحقيقة في أقواله و أفعاله .

و الإبداع الأدبي يكشف عن الظاهرة الإنسانية والتي ترتبط بملابسات اجتماعية و سياسية والتي تقوم على عاملين هامين هما :

الأول : وعى الحواس بالإدراك السوي لرسالة الإنسان في الوجود .

الثاني : السلوك الإنساني من الموضوعات المركزية التي لا تطرق لذاتها و إنما تطرق باعتبارها ذات صلة وثيقة بحياة الإنسان و وجوده على الأرض .

فالإنسان قد يكون مستلباً ، يعيش احباطات عدة ، و بخاصة عند الاقتراب من دائرة خصوصيته، والتي تتطلب فهماً خاصاً لعلاقة الإنسان بالبناء الثقافي الذي يدير صراعه معه .

هذا البناء الذي يتحدد في أشكال مسيطرة ، تتخذ شكلاً ظاهراً في المؤسسات القائمة التي يصنعها الإنسان ، و قد لا يستطيع تغييرها أو التي تتخذ شكلاً رمزياً حين يصبح من المتعذر التعبير عنها ، فما كان ممكناً للإنسان أن يشعر بتواصله مع جدل هذا الإبداع إلا من خلال رؤية ناقدة التي يمكن التواصل فيها بين عنصري الزمان و المكان ، " فإن الذي يرى كل شيء يختصر كل شيء " .

فالعقل المعاصر يجنح نحو التسلط و السيطرة ، حتى أصبح هم الإنسان هو السعي الحثيث لمواجهة ما يعوق حركة حياته نحو الأفضل في ظل الظروف الاجتماعية والاقتصادية و السياسية التي تحاصر الإنسان فوق الأرض بكل أشكالها الايجابية والسلبية ، فالحضارة الإنسانية يقودها العقل نحو التدمير

الذاتي ، لأن بنية العقل الأساسية هي التسلط ، و العمل الأدبي هو الوحيد الذي لا يخضع لهذا التسلط ، فإذا كانت المعرفة قد اتجهت إلى السيطرة ، و نفي التفرد ، و لم تعد هناك علاقة سوى التنافس المستمر ، فإن العمل الأدبي هو الوحيد القادر على إنقاذ هذا التفرد ، لأنه يحمل جانباً ثقافياً يستطيع أن يؤكد قيمة وجود الإنسان في الحياة ، لأنه يترك للأشياء وجوهها الفريدة ، وهو يضع مسافة بيننا وبين الأشياء والمشاهد والكلمات ، كما أنه يكشف عن حضور كيفي للأشياء ولذلك فهو تأكيد وبلورة لكل ما هو عام وخاص في مقابل الكلية التي تريد أن تتسلط .

وكل إبداع أدبي يحمل في ذاته علامات المكان والزمان الاجتماعيين ، الذي ينشأ فيهما ، لذلك لا نستطيع أن نقول أن هناك حياة خاصة ونقية للإنسان تسمح بتجاوز ظروف الوجود والوصول إلى طبيعة الأشياء ، لذلك يتسم العمل الإبداعي بسمات عامة تلتزم بها أي نظرية للمعرفة تطمح أن تكون نظرية للمجتمع ، وأن تدرك ذلك بوعي ، لذلك فإن على الأديب أن يمارس دوره التاريخي في النقد البناء من خلال القيم المربية لكل ما يدور حوله مشاركة في رسم حياة المجتمع بإبداعه المعبر عن آفاق تنمية هذا المجتمع لبناء الإنسان .

هذه التنمية التي يحاول الإبداع الأدبي رصدها و تشخيص آليات فعلها لابد أن يصاحبها الإبداع الإنساني الذي يصنع الحضارة، وفي حالة غياب الإبداع الذي يقدم الوجه الحضاري المستقبلي للأمة ويضئ رسالتها المشاركة في صياغة العالم و حضارته تكون غاية العلم و نهايته محض الاستيعاب والتلقي القابل المنفعل وتكون حركة الثقافة و صراعات الحياة العلمية ومشاكلها وبرامجها لصياغة العقل والتاريخ انسحاقا أمام سطوة النموذج المعطى وتبريراً ذيلياً لصنوف

الاغترابات وضبطاً للخطى على إيقاعات تراد للأمة لا تريده وتحاصر به وينتهك إيقاعها الحي الخلاّق ومستقبلها الصعب بقص أطرافه وكسر أجنحته وإبقائه في لفائف التحنيط المنمذج و اعتقال العقل في المنطقة الضائعة بين الوضوح الكامل للمقولات العامة والخلط الكامل لهلامية المسار والمصير في الواقع العيني المباشر، حيث ينعكس ذلك على التربية فيكون خطابها ملتبسا تحيطه هالات الغموض.

ومن أراد أن يطيل النظر في معطيات الحياة الثقافية والإبداعية كماً وكيفاً ليتمكن من رسم خريطة علمية تبين علاقات الظواهر وقوانين حركاتها ومحصلات تصارعها وتحولاتها ومنحنيات صعودها وهبوطها فسوف يجد أن الاحتكام في التحليل والدراسة العلمية للقوانين العامة والمقولات الكلية الصحيحة والقواعد المنهجية المنضبطة قد أسهم إلى حد كبير في تعتيم و تمييع المعرفة بالواقع وتجريد الواقع من واقعيته وقد انعكس ذلك على التربية في خطابها الراهن.

أولا: الرواية المربية في الإبداع الأدبي :

وتقدم الرواية في إبداعها الأدبي فيضاً تربوياُ يحتوى تناقضاً بين الواقع والمثال لتأكيد قيمة التأمل والفرز التربوي الذي يحيل الإنسان إلى الشعور بالتطهر مقتفياً أثر القيم النبيلة الفاضلة، حيث تقدم الرواية المربيّة نقيضين بين صواب مطلق، وخطأ مطلق لتؤكد بذلك انفصالاً بين الفكر والسلوك ليبرز دور التربية في عملية تحريك العقل حيث تكون أداة للربط الحضاري تنمى روح التساؤل والتحقق وتطرح بذلك آليات للرؤية الناقدة التي تقوم على بناء صورة إيجابية من ركام التناقضات من خلال الوعي بالأزمة القيمية التي تطرحها الرواية.

والرواية بذلك تكون قصة بحث متفسخ (ما يسميه لوكاتش " بحث ممسوس) " بحث عن قيم أصيلة في عالم هو نفسه متفسخ ، ولكنه من ناحية أخرى وطبقاً لصيغة مختلفة بحث على مستوى متقدم . وليس معنى القيم الأصيلة تلك القيم التي يراها المؤلف أو القارئ قيماً أصيلة ، ولكنها تلك القيم التي تنتظم عالم الرواية باعتباره كلاً وفقاً لصيغة ضمنية ، ودون أن تكون لها وجود علني في الرواية. إنها تمضى في عملها دون أن يقال إن هذه قيم ملزمة لكل رواية ، كما أنها تختلف من رواية إلى أخرى ، وهنا الدور المربى لها حيث تعطى الرواية طبيعة جدلية وذلك من موقفها بين النقيضين الذي مرده إلى الاختلاف بين طبيعة كل من النقيضين ، فالرواية تنهض من قلب المجتمع بكل ظروفه تصاحبها روافد تسهم في صياغة مفهوم ومسعى التربية في المجتمع ،ففلسفة كل مجتمع هي نتاج لمجمل ظروفه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ثانيا: الرواية المربية وتكوين تصور مغاير عن التاريخ :

وتحمل الرواية المربيّة خطاباً للتطور الاجتماعي والحضاري يقتضى فرز كتّاب الرواية الذين يقومون بعبء التعبير عن التطلعات الجديدة والتغيير المستمر، وكشف الأنماط الفكرية والسلوكية المتدافعة عن حركة النمو الفاعلة ، والدفاع عن الثوابت التي هبت عليها عواصف تحاول اقتلاعها ، أو طمسها أو التقليل من فاعليتها .

والرواية المربية لابد وأن تكون بوصفها نوعا أدبيا حاملة للقيم الأصيلة التي هي قيم مضمنة دائما أن تكون حاضرة في الروية في شكل شخصيات واعية ، أو وقائع مجسدة كي تتخذ طابعا أخلاقيا ،فالرواية المربية تجعل مما هو مجرد

وأخلاقي في وعي الروائي العنصر الجوهري من عناصر الرواية ،حيث لا يمكن للواقع أن يوجد إلا في شكل غياب لا يتحدد في موضوع .

وتعد الرواية رافدا تربويا مهما ،إذ أنها تؤكد عبر إبداعاتها أن مستقبل الإنسان وأحلامه وتطلعاته إلى عالم أفضل يقع أمامه لا وراءه ، وتؤكد الرواية المربية أن أفضل الممكنات هو الآتي الذي ليس نسخا أو تقليدا لما مضى . حيث تدفع الرواية المربية إلى تكوين تصور مغاير لدى الإنسان عن التاريخ يرتبط بمعنى التطور ، تصور يجعل من التاريخ حركة صاعدة إلى الأمام ،وليس استدارة ترجع إلى الخلف .

على هذا الأساس كان لابد للرواية المربية مراعاة الوسط الجديد الذي صرنا فيه لأن الوسط الماضي قد تغير علميا واجتماعيا وسياسيا ، هذا ما يقدمه نجيب محفوظ في روايته أولاد حارتنا حيث تعامل مع صناعة وتنمية الذات الكونية منذ بدء الخليقة معتمدا علي هوية اللحظة الزمنية المتعاقبة تاريخيا من خلال المعتقدات الأسطورية والديانات الطوطمية مضيفا إليها خواطر ميتا فيزيقية وصولا إلي الديانات السماوية .

فالرواية المربية في الماضي البعيد كانت قد بدأت على لسان الجدة العجوز التي تحكي لأحفادها في الكهف أو في الخلاء عن بطولات زوجها أو ابنها في قهر المغيرين أو الحيوانات المفترسة ،وتلك طريقة للتربية وإنتاج المعرفة من خلال ما ترويه الجدة العجوز.

لقد كانت حكاوي هذه الجدة هي البداية الأولى لإنتاج نوابغ الملحميين ، أمثال هوميروس وهزيود والفردوسي مما احترفوا جمع الأساطير العجيبة من

ترديدات الشعراء الجوالة ليعيدوا صياغتها من خلال الحبكة و التشويق ، ورسم الشخصيات المتخيلة رسماً جيداً يحقق انسجام أفعالها مع طبائعها ثم دس المغزى المعرفي والأخلاقي بطريق غير مباشر ، وبذلك تكون النتيجة تعرّف الأجيال الصاعدة على المنظومة الفكرية للجماعة وآليات تربيتها، و بالمقابل تتعرف على الأغيار المختلفين عنها ، فضلاً على التعرف على البيئة الطبيعية المحيطة ثم العالم بأسره من بعد .

وقد سارت التربية في طريقها مصاحبة لنشأة المجتمعات مع تكاثر المعرفة من خلال علاقات العمل والحاجة للإنتاج والاحتكاكات اليومية بين البشر بعضهم البعض .

ثم راحت المعرفة المتولدة عن الشعر الملحمي تتطور مرتبطة بنظرة إلى الوجود ارتباط الأنطولجى بالإبستيمى ، وقد كانت تلك المعرفة تحكمها العشوائية ، والتماس تفسير ظواهر الطبيعة والعلاقات الاجتماعية في عالم الخرافة . بحسبانه الوحيد المتاح وقتذاك .

وقد تزامن مع ذلك حاجة الإنسان إلى تهذيب النفس والشعور بالرضا فكانت ضرورة اللجؤ إلى دين يكون ملجأ للنفس البشرية ليظل ملاذها الدائم .

ثم أخذ الدين ينبثق من بين الأساطير ، يهذبها ويؤسس عليها المرامى التربوية والسياسية والأخلاقية الأصلح ، حتى صار الدين بذلك أعلى المرجعيات المعتمدة والمهيمنة على مجالات التربية والمعرفة المختلفة ، وراح الأدب باعتباره نشاطاً عقلياً إبداعياً وممارسة وظيفية سوسيولوجية ، يغترف من النبع الديني والتربوي ليقدم جمالياته الخاصة ، ثم ما لبث أن تفرعت منه العديد من الفروع

وسرعان ما اصطدم هذا بتلك إذ تراجعت الديانات الطوطمية الأولى في بساطتها لتفسح المجال لمنظومات دينية سماوية ، وغير سماوية ، يؤكد كل واحد منها أن الحق المطلق حكر له دون غيره ، وحتى في داخل الدين الواحد انقسمت الجماعة إلى مذاهب وملل ونحل تتنابذ وتتصارع وخلال كل ذلك كانت التربية تعكس خطابات تلك التحولات. وأخذت هذه الانقسامات نصيبا واضحا في معظم الديانات عندما اختلط الديني بالسياسي (المقدس بالمدنس).

ثم اندفع من داخل الكنيسة الأرثوذكسية بالإسكندرية رجل يعلن أن المسيح وإن كانت له طبيعة واحدة ، إلا أنها طبيعة بشرية لا إلهية فكان منطقياً أن يدفع حياته ثمناً لهرطقته تلك ، اغتيل هذا الراهب (آريوس) غير أن فكرته لم تمت ، بل هاجرت إلى الجزيرة العربية والشام ليتلقفها بعض الرهبان المثقفين لتصل أخيراً إلى الراهب (بحيرا) و (ورقه بن نوفل) و " خديجة بنت خويلد " الذين آمنوا فيما بعد بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً يأتيهم بقرآن يحدثهم عن عيسى الذي ما كان إلهاً قط أو ابنا لإله ، ليبدأ المدّ التوحيدي مؤسساً لدولة عظمى و حضارة بازغة ، كان المغزى الكامن وراء تأكيد الإسلام لوحدانية الله وتعاليه ، وكذلك تأكيد الإسلام لكونه خاتم الرسالات السماوية ، هو الاعتراف ببلوغ الإنسان سن الرشد ، والاعتراف بحقه في تقرير مصيره بنفسه وصاحب كل ذلك توجهات تربوية نابعة من قلب المجتمع بقيمه وظواهره تحاول البقاء والتأسيس لمجتمع جديد فيتم نقل التوجهات التربوية تلك عبر الأجيال بشكل أقرب إلى الرواية .

ثم كان التيار الثقافي الإسلامي العام الذي أنتج أدبيات تحض على الاستسلام لسلطة الخلافة باعتبار طاعة ولى الأمر ترداداً لطاعة الله ، وهكذا

انحصر استخلاف الإنسان (بألف لام الجنس) في سلطة الخلفاء (بألف لام العهد) ومع ذلك فقد سعى البعض إلى تحرير العقل من سلطة النص ومن هؤلاء المعتزلة ، والصوفية والفلاسفة ، بل حاول بعض الفلاسفة أن يصل بفكره التحريري إلى أذهان العامة باصطناع وسيلة الأدب القصصي ، فكتب " ابن طفيل" حى بني يقظان ، واضعاً بطله في موقف وجودي منفرداً وحيداً في جزيرة منعزلة ليثبت قدرة هذا الشخص المنفرد (المعزول عن الجماعة) على إدراك حقائق الكون " بالعقل "وحده دون حاجة إلى " النقل " كتب ابن طفيل هذا في تأثر واضح بالأفلاطونية المحدثة (الأفلاطونية المحدثة ترى أن الروح تعيش على التوالي بين عالم العقل وعالم الحس) التي كان أهل السنة والأشاعرة (قادة السنة الفكريين) يرفضونها جملة و تفصيلاً بسبب غنصويتها * الرامية إلى المساواة بين وحى النبوة ووحي غيرهم من البشر غير الأنبياء .

ثم نرى أبا العلاء المعرى ، وسعيه إلى أنسنة المنظومة الدينية بأسرها من خلال شعره ونثره ولاسيما أطروحته الفكرية السياسية : " رسالة الغفران " ثم كان ابن خلدون بنظريته : (العضوانية) في تفسير التاريخ (وهى نظرية مادية) في معظمها مؤسساً بذلك لقطيعة منهجية مع المؤرخين الكلاسكين أمثال الطبرى ، وابن كثير والمسعودى مما اعتمدوا النصوص المقدسة مرجعاً أساسياً لسرد قصة الجنس البشرى ومن خلال المرويات التاريخية التي احتوت القيم المربية بهدف تأصيلها في نفوس البشر سعيا لبناء الإنسان .

حيث قدم نجيب محفوظ في أولاد حارتنا عرضا لتعاقب الديانات السماوية من خلال الرسل والأنبياء (جبل / موسي ، رفاعة / عيسي ، قاسم / محمد)

وكيف كانت تلك الديانات عاملا مهما في تربية الإنسان وتوجيه أفعاله وضبط أقواله وصولا إلي معرفة تقود الإنسان للأفضل ، إلي أن كان العلم الحديث الذي غير الكثير من المفاهيم عن الكون والحياة .

وقد ظل الإبداع الأدبي بالمعنى الأوسع لمفهومه المربي بتاريخ الأفكار في رحلة لإنتاج المعرفة في المرحلة الدينية ، أما الحياة اليومية فقد كانت ماضية في طريقها تقودها حاجات الناس المتزايدة إلى إشباع الأجساد بأكثر من حاجتها لإشباع الأرواح والعقول استجابة لطبيعة الأجساد المادية . فالإنسان لا يستطيع الصبر على الجوع أو الحرمان الجنسي أو البقاء في العراء دون مأوى .

فقد كان من الطبيعي أن تتطور القوى المنتجة بما يخترعه الناس أو يكتشفونه أو يتاجرون فيه من سلع وبضائع وأدوات طلبا للثروة والقوة والهيمنة. وخلال هذا الصراع الذي لم يتوقف بين الأفراد والأفراد ،والمجتمعات وغيرها ، وبين الطبقات قديمها وحديثها ، ولد العلم الحديث ليكون تعبيرا عن هذه الاحتياجات المادية المتزايدة ، راح العلم يقدم أوراق اعتماده للبشر محتميا بمبدأ السببية ومرتكزا على آلية التجريب ، وهما مبدآن مقبولان عند الجميع مهما تختلف ديانتهم أو عقائدهم مما اضطر معه رجال الدين أن يعترفوا للعلماء بأحقيتهم في إنتاج معرفة أدق بالكون وبالحياة وبالمجتمع ، معرفة لا تقوم على مجرد النقل من السلف إلى الخلف ، أو على إتباع النصوص المقدسة إتباع الخاضع للمستسلم دون نقد أو تمحيص أو تأويل يعيد إنتاج المعنى الديني بما يتواءم والكشف العلمي .

فقد رأينا الكنيسة الكاثوليكية في أوربا تلك التي أحرقت جوردانو برونو وكادت تقتل جاليلو ،رأينا تعتذر اليوم عن فعلتها مسلمة بأن الأرض تدور.

وقد صار الحال في العالم الإسلامي ليس على النحو السابق وآية ذلك أن نوابغ العلم الطبيعي من أمثال الحسن بن الهيثم ،وأبو بكر الرازي وابن النفيس لم يتمكنوا من تجذير مناهجهم العلمية في تربة الثقافة السائدة بسبب تصحرها وتجريفها وذلك بسبب تراجع المد العسكري الفاتح ،ومرورا بفقدان العرب المسلمين السيطرة على البحر المتوسط والبحار الشرقية في القرن الحادي عشر الميلادي ، وصولا إلى تعرض العالم الإسلامي للهجمة المضادة من العالم الغربي (الحروب الصليبية)، فقد انكفأت البرجوزايات العربية الإسلامية إلى الداخل لعدة قرون قانعة بالتجارة الداخلية مما قلص من ثروتها وأعدم من فرصتها في تحويل المال إلى رأس مال صناعي حين أطل على الدنيا عصر البخار وفي هذه الأثناء كان استبعاد التعدد الذي يكشف عن التفاصيل الدقيقة في بنية الثقافة العربية في أبعادها الجغرافية والاجتماعية بذلك لم نجد الثقافات المتداخلة والمتضمنة في إطار الثقافة الكلية للأمة ووعيها التي تعبر عن العديد من الشرائح الاجتماعية المتعددة، والتي اختلف حضورها تبعا لمدى قربها أو بعدها عن الخطاب الثقافي السائد بينا نجد في الإبداع الأدبي الخطاب الثقافي ممثلا للعناصر الجوهرية بآليات ورؤى مختلفة .

والإبداع الأدبي يستخدم اللغة التي هي في أهم تجلياتها تعبير عن علاقات اجتماعية وياكرونية (متعاقبة) ، وعلم اجتماع الأدب يقوم بربط الظاهرة الأدبية بالظاهرة الاجتماعية انطلاقا من ذلك الوسيط اللغوي ذاته بصفته عاملا مشتركا بين الظاهرتين ، وبذلك يكون العمل الأدبي بمثابة الخلية التربوية الحية في جسم المجتمع ،وبالمقابل تكون الظاهرة الاجتماعية متجلية بصورة واضحة أو بالأحرى في نسيج العمل الأدبي الذي يقدم توجهات تربوية تجسد المضامين التربوية التي

تسعى لبناء الإنسان في كل مراحل حياته من خلال الحث على البناء والتغيير نحو الأفضل .

أولاد حارتنا :

تتناول رواية أولاد حارتنا تاريخ البشرية من حيث هو تاريخ النجاة والخلاص الإلهي بدءا بخلق العالم وطرد أدم وحواء من الجنة ومرورا بظهور الأنبياء وانتهاء إلى مشكلات العصر الحاضر وهي في تناولها هذا تنقل تاريخ النجاة إلى نطاق حي من أحياء القاهرة القديمة وبهذا تخلصه من البعد الأسطوري لتقربه قربا مباشرا من جمهور القراء .

تقع الأحداث في حارة والشخصيات المحركة لها بدءا من الجبلاوي في البيت الكبير وأولاده من بعده :إدريس = إبليس ، وأدهم = آدم وولدي آدم همام = هابيل الذي يقتله شقيقه قدري = قابيل . والفتوات الذين يعيثون في أرجاء الحارة ظلما وفسادا والرجال الذين ينهضون من آن لآخر لرفع البؤس عن الناس وقهر الظلم : جبل = موسى ورفاعة = يسوع وقاسم = محمد الذي ينجح في تحطيم نفوذ الفتوات بالقوة ويأمر لأول مرة بتوزيع ريع الوقف الذي وقفه الجبلاوي على أبنائه وذريته – على جميع سكان الحارة دون تفرقة بينهم في العشيرة أو الجنس ولكن الذي يحدث بعد موته مثلما حدث بعد موت سلفيه هو عودة ناظر الوقف والفتوات إلى سلطتهما القديمة ورجوع الظلم والبؤس سيرتهما الأولى لأن البشر سرعان ما ينسون تعاليم روادهم الكبار .

وفي ا لجزء الذي يعقب عصر الأنبياء نجد شخصية الساحر عرفه الذي يرمز للعلم الحديث الذي لا ينتسب لدين أو وطن ويستأنف عرفه الصراع الذي بدأه جبل

ورفاعة وقاسم مع الفتوات لكي يوفر لأولاد الحارة حياة لائقة بالبشر إنه يريد أن يحقق الشروط العشرة التي وصلت إليه وصية الجبلاوي (الوصايا العشر) وإن لم يكن في الواقع من رجال الجبلاوي وعندما ييأس من بلوغ هدفه يتسلل إلى بيت الجبلاوي الكبير لكي يكتشف سر وصية الوقف ويتورط عن غير قصد في قتل الخادم العجوز الذي يحرس الوصية ويلوذ بالفرار مذعورا .

ويتبين بعد ذلك أن الواقف المسن كان لا يزال على قيد الحياة ولكنه مات متأثرا بالصدمة . ويطارد الفتوات عرفه فيتمكن من إنقاذ نفسه بإلقاء الزجاجة السحرية التي اخترعها على مطارديه وهى سلاح متفجر يفوق كل ما عداه من أسلحة غير ان الناظر – رمز الطاغية الشرقي – يسخره لخدمته ويتخلص الناظر من الفتوات بفضل الزجاجة السحرية ولكنه يفعل هذا لمصلحته لا لمصلحة الحارة بهذا يصبح عرفه فتوته الجديد وفي النهاية يتمكن عرفه من الهرب ولكن أتباع الناظر يلقون القبض عليه ويقتلونه قتلة فظيعة ويتجه أولاد الحارة في البداية إلى إدانة عرفة ويتهمونه بقتل الجبلاوي وبأن سلاحه العجيب هو الذي جعل من الناظر طاغية لا يقهر ولكن بعد موت عرفة يشيع الأمل في الصدور فقد تمكن مساعده "حنش " من النجاة بنفسه ولعله قد تمكن أيضا من إنقاذ كراسة عرفه السحرية .

وكلما اشتدت حملة الناظر على عرفه وقوى اتهامه بقتل الجبلاوى مضى الناس يقولون: لا شأن لنا بالماضي ولا أمل لنا إلا في سحر عرفه ، ولو خيرنا بين الجبلاوى والسحر لاخترنا السحر وهكذا أخذ بعض شبان الحارة يختفون تباعا لكي يتعلموا السحر على يد حنش استعدادا ليوم الخلاص الموعود .

لم يترتب على اقتحام عرفة (العلم) لبيت الجبلاوى (العالم في الدين والميتافيزيقا) إلا أسوء النتائج : مقتل الخادم العجوز وموت الجبلاوى وتسخير عرفة في خدمة الناظر وانتصار هذا الناظر انتصارا ساحقا في القهر والجبروت وهنا تطل هذه الأسئلة الملحة برؤوسها : هل فشل عرفة لأنه لم يتحرر بعد من إيمانه بالجبلاوى ؟ أم يرجع فشلة إلى محاولته النفاذ إلى عالم الميتافزيقا الذى ليس للعلماء (الطبعيين) أن يبحثوا فيه عن شيء ؟ أم يرجع في النهاية إلى تجرئه على المساس بأقدس المقدسات ؟ وعندما يصل عرفة في خدمته للناظر إلى الدرك الأسفل تظهر امرأة تحمل إليه الرسالة الوحيدة التي وجهها الجبلاوى إليه : "أذهبي إلى عرفة الساحر وأبلغيه عنى أن جده مات وهو راض عنه" .

وتبقى حقيقة هذه الرسالة غامضة ولا يمكن القطع بأنها لم تكن إلا حلما من أحلام عرفة ولكنها هي التي تشجعه على اتخاذ قراره بالهرب من خدمة الناظر كما تمهد التحول النهائي الذي تسوده روح التفاؤل .

لقد وثق من رضاء جده عنه واطمأن إلى أنه لم يغضب لاقتحامه بيته وقتل خادمه ولكنه فهم منها كذلك أن رضاه ينطوي على سخطه على عمله في خدمة الناظر.

وربما كان التفسير القريب لهذا أن عالم الدين والميتافيزيقا قد انتهى ولكن العالم (بكسر اللام) هو صاحب الحق في المستقبل يعترف بالقيم الروحية والمعايير الأخلاقية التحى أخذها عنه .

ولا شك في أن الإشكالية التي أثارت النقد بل الاحتجاج والثورة على الرواية تكمن في نقل التاريخ المقدس – أي تاريخ النجاة والخلاص والهدي على أيدي

الرسل والأنبياء عليهم السلام – إلي مستوى الحارة التي تزدحم بالفتوات ويرزخ أهلها تحت أثقال الفقر والقهر والجهل والمرض والقذارة ومن ثم"علمنته" أو إطفاء النزعة الدنيوية عليه وتصغير مقاييسه وإطفاء هالات الجلال والقداسة التي تحيط به وعرضه علي جمهور القراء عرضا يقرب إليهم أحداثه وإن كان في الوقت نفسه يؤثر فيهم تأثر الصدمة .

ومع أن الرموز الحية في الرواية أكثر مما ينبغي للرموز الفنية (لأن الرمز يتسم بالضرورة بقدر من الغموض ويشع دلالات ومعانا متعددة بينما هو في الرواية أحادى البعد صريح الدلالة) .

وبالتعمق في تلك الرموز التاريخية والمتعالية في الوقت نفسه علي التاريخ مثل (جبل ورفاعة وقاسم) و (عرفة الساحر أو العالم) حيث تتضح مواقف نجيب محفوظ من الدين والميتافيزيقا والعلم والعقلانية وشوقه إلي المجتمع العادل السعيد الذي يقهر الموت أو علي الأقل ينسي الناس مأساة العدم الزاحف عليهم لا محالة إذا حسنت أحوال الناس قل شره – أي الموت فازدادت الحياة قيمة وشعر كل سعيد بضرورة مكافحته حرصا على الحياة السعيدة المتاحة – "سيجمع الناس السحرة ليتوفروا لمقاومة الموت – بل سيعمل بالسحر كل قادر هنالك يهدد الموت " ص 354 ، رواية أولاد حارتنا ، نجيب محفوظ ، دار الشروق ، القاهرة ، 2010 .

فقد تناولت رواية أولاد حارتنا مشكلات مهمة مثل تأثير الدين والعلم في الحياة وإيجاد مجتمع عقلاني تختفي منه مآسي الفقر والذل والبطش ... إلخ فتهون علي الإنسان مأساة وجوده أو عدم وجوده .

إشـارة :

*__الغنوص__ : *Gnosis* كلمة يونانية ومعناها المعرفة ، وفي المصطلح هي نوع من المعرفة العليا تمتزج فيها الفلسفة بالتصوف بالسحر ، والغنوص أقدم وحي من الإله ، ولا يزال يتحرك هنا وهناك ويختلف مع الدين في أن دائرته مفتوحة دوما ويتبدي الغنوص في الثقافة الفارسية في هيئة المانوية وعبادة الاثنين ، وقد تسلل منها إلي اليهودية ثم إلي المسيحية ، وأما الإسلام فقد ظهرت فيه الغنوصية من خلال فكر الباطنية والاعتقاد بأن الإمام يتلقي المعرفة من السماء وبالتالي فانقطاع الوحي بعد النبي محمد صلي الله عليه وسلم مسألة – في رأيهم – غير صحيحة !

obeikan.com